من أقاصيص الأولين

عرض وتقديم : سامية زكى

الخيزران :

كانت من قبل جارية لرجل من ثقيف ، ورأت فيما يرى النائم أن الشمس والقمر يبزغان من جسدها ، وقصت رؤياها هذه على سيدها ، وما كان جوابه الا أن قال لها : لست من جوارى مثلى ، أنت تلدين خليفتين ـ

قدم بها سيدها الثقفى الى مكة ، وباعها فى سوق الرقيق ، وعرضها الذى اشتراها على الخليفة العباسى أبى جعفر المنصور ، الذى قال لها : من أين أنت ؟

قالت : مولدى مكة ، ومنشئى بجرش ·

قال : أفلك أحد ؟

قالت : مالى أحد الا الله ، وما ولدت أمى غيرى ·

فقال المنصور لأحد غلمانه : اذهب بها الى المهدى ، وقل له : انها تصلح للولد ·

أتى بها الغلام الى حيث أمره الخليفة ، وعرضها على المهدى الذى قال لها : والله يا جارية انك لعلى غاية المتمنى ·

وقعت من المهدى موقعا حسنا ، وحظيت عنده ، وولدت له ولدين صار كل منهما خليفة للمسلمين فيما بعد · أما أولهما فهو موسى الهادى ، وأما الثانى فهو هارون الرشيد ·

وحين شعرت بمكانتها عند المهدى ، وحين رأت أن فى ابنيهـــا موسى وهارون ما يعصمهـا من كل تغـير أو انحراف فى قلب المهـدى ، أفصحت عن سر مكتوم ، وقالت له :

ان لى أهل بيت بجرش فى اليمن ٠

قال المهدى : ومن لك من الأهل ؟

قالت : لى أختان ،اسم احداهما « أسماء » واسم الأخرى « سلســـل » ٠ ولى أم ، وأخوان ٠

كتب المهدى باحضار أهلها فأحضروا ٠ وتزوج جعفر بن أبى جعفر المنصور ، وأخو الخليفة المهدى « سلسل » التى ولدت زبيده التى تزوجها فيما بعد ابن عمهـا هارون الرشيد ٠

بقيت أسماء عذراء فترة من الزمن ثم تزوجها الخليفة المهدى بحيلة احتالها ٠

تقدم الى الخيزران وقال لها : قد ولدت لى رجلين همـــا موسى وهارون ، وقد بايعت لهما بالخلافة من بعدى ، وما أحب أن تبقى جارية ، وأحب أن أعتقك ثم تخرجين الى مكة وتقدمين فأتزوجك ٠

قالت : الصواب رأيت يأمير المؤمنين ٠

اعتقها المهدى وصارت حرة ، ثم خرجت الى مكة ، وانتهزها المهدى فرصة فعقد على أسماء ، ومهرها مليون درهم ، ووهب لها مليون درهم أخرى ٠

وعند عودة الخيزران من مكة خرج المهدى لاستقبالها ، وكانت الأخبار بزواجه أختها قد وصلتها ، وكانت فى يأس من أمر عودتها الى المهدى من حيث أن الشريعـة قد حرمت الجمع بين الأختين ـ لذا لم تكد تراه حتى بادرته القول فى جرأة :

ما خبر أسماء ، وكم وهبت لها ؟

قال : من أسماء ؟

قالت : امرأتك

قال : ان كانت أسماء امرأتى فهى طالق ٠

قالت : طلقتها حين علمت بقدومى ٠

قال : أما اذ علمت فقد مهرتها الف الف درهم ، ووهبت لها الف الف درهم ٠

وعقد على الخيزران كما وعدها وتزوجها ٠

قال الواقدى : دخلت يوما على الخليفة المهـــدى فدخل الى دار الحريم ثم خرج متنكرا ممتلئا غيظا ٠ فلما جلس قلت :

يا أمير المؤمنين ، خرجت على خلاف الحال التى دخلت عليها ؟

فقال : نعم ٠ دخلت على الخيزران ، فوثبت على ، ومدت يدها الىّ ، ومزقت ثوبى وقالت لى ياقشاش ، أى خير رأيت منك ؟ لقد اشتريتها من نخاس ، ورأت منى مارأت وعقدت لابنيها ولاية العهد ٠ ويحك : أفأنا قشاش ؟

قال الواقدى : فقلت : يا أمير المؤمنين قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ان النساء يغلبن الكرام ويغلبهن اللئام ـ وقال : خيركم خيركم لأهله وأنا خيركم لأهلى ـ وقال : قد خلقت المرأة من ضلع عوجاء ان قومتها كسرتها ٠ وحدثته فى هذا البـاب بكل ما حضرنى ، فسكن غضبه ، وأسفر وجهه ، وأمر لى بألفى دينار ٠ وقال ! أصلح بهذه من حالك ، فاخذتها وانصرفت ٠

قال الواقدى : فلما وصلت الى منزلى وافانى رسول من الخيزران فقال لى :

تقرأ عليك سيدتى السلام وتقول لك : يا عم قد سمعت جميع ما كلمت به أمير المؤمنين فأحسن الله جزاءك ، وهذه ألفا دينار الا عشرة دنانير بعثت بها اليك لانى لم أحب أن أساوى بين صلتى وصلة أمير المؤمنين ٠ ووجهت الى بأثواب ٠

وقد دام سلطانها على الخليفة المهدى حتى أتته المنية عام ١٦٩ هـ

وحين ولى الخلافة ابنها موسى الهادى أرادت أن تستبد بأمور الخلافة ، وتدخلت فى كثير من الشئون ـ لولا أن وقف منها ابنها موقفا حازما ، ورغب فى الا تسلك به مسلك أبيه ٠

لقد أرسل اليها ذات يوم يقول : لا تخرجى من خفر الكفاية الى بذاذة التبذل ، فانه ليس من قدر النساء الاعتراض فى أمر الملك ٠ وعليك بصلاتك ، وتسبيحك ، وتبتلك ، ولك بعد هذا اطاعة مثلك فيما يجب لك ٠

كان أول أمره يجيبها الى كل ماتسأل قياما بحق الأمومة وبرا بها ٠ ومضى على ذلك أربعة أشهر حتى رأى أن الناس قد طمعوا فيها ، وانثالوا عليها ٠ وحتى علم أن حجابها قد رسموا ألا يقف أحد ببابها راكبا دابته ـ كائنا من كان ـ بل يجب عليـه النزول ٠

كلمته يوما فى أمر لم يجد الى اجابتها اليه من سبيل ، واحتج بحجة ·

فقالت له : لابد من اجابتى اليها ·

قال : لا أفعل ·

قالت : فانى قد تضمنت هذه الحاجة لعبد الله بن مالك المالكى ـ وهو من رجال الدولة العباسية ·

فغضب موسى الهادى وقال : ويلى على ابن الفاعله · قد علمت أنه صاحبها ، والله لا قضيتها لك ·

قالت : اذن والله لاأسألك حاجة أبدا ·

قال : اذن والله لا أبالى ·

وحمى ، وغضب ، فقامت مغضبة ·

فقال لهـــا : مكانك تستوعبى كلامى · والله ـ والا فأنا نفى من قرابتى من رسول الله صلى الله عليه وسلم ـ لئن بلغنى أنه وقف ببابك أحد من قوادى ، أو أحد من خاصتى أو خدمى ، لاضربن عنقه ولأقبضن ماله ، فمن فعل فليلزم ذلك ·

ما هذه المواكب التى تغدو وتروح الى بابك فى كل يوم ؟ اما لك منزل يشغلك ؟ أو مصحف يذكرك ؟ أو بيت يصونك ؟ ·

اياك ثم اياك ، ما فتحت بيتك لملى او ذمى ·

فانصرفت من عنده ما ترى شيئا مما فى طريقها ، ولم تنطق عنده بحـلوة ولا مرة بعدها ، ومالت كل الميل الى ابنها الآخر هارون الرشيد ·

وجمع موسى الهادى يوما القواد الذين يأتون باب الخيزران فقال لهم :

أيما خير أنا أم أنتم ؟

قالوا : بل أنت يا أمير المؤمنين ·

قال : فأيما خير أمى أم أمهاتكم ؟

قالوا : بل أمك ياأمير المؤمنين ·

قال : فأيكم يحب أن تتحدث الرجال بخبر أمه ، فيقولوا : فعلت أم فلان ، وصنعت أم فلان ؟

قالو : ما أحد منا يحب ذلك ·

قال : فما بال الرجال يأتون أمى فيتحدثون بحديثها ؟

فلما سمعوا ذلك انقطعوا عنها البته ؛

شق عليها ذلك فاعتزلته ، وحلفت ألا تكلمه ، فما دخلت عليه حتى حضرته الوفاة ·

***

ريطة

كانت هى الأخرى زوجة للخليفة المهدى ، ولم تكن جارية وانما هى ابنة عمه ـ أبو العباس السفاح ـ وولدت له هى الأخرى ولدين هما عبيد الله بن المهدى · ومن قصصها مع أبى دلامة الشاعر هاتين القصتين ·

(أ)

كان أبو دلامة ـ على شدة اتصاله بأبى جعفر المنصور الخليفة العباسى ـ كارها للصلوات ، مستهترا ، يشرب الخمر ، فألزمه المنصور القيام بفرائض العبادات فى شهر رمضان خاصة · فقال له أبو دلامة : البلية فى شهر أصلح منها فى طول الدهر ·

وكان المهدى بن المنصور يبعث الى أبى دلامة فى شهر رمضان فى كل ليلة حرسيا يجىء به للعبادة ·

شق ذلك على أبى دلامة ، وفزع الى الخيزران ، وكل أصحاب المهدى ليشفعوا له فى الاعفاء من القيام فى هذا الشهر المبارك ـ ولكن الخليفة لم يجبهم الى طلبهم ·

قال أبو عبيد الله معاوية الأشعرى الكاتب لأبى دلامة : الدال على الخير كفاعله ، فكيف شكرك ؟

قال أبو دلامة : أتم شكر ·

قال : عليك بريطة زوجة المهدى فانه لايخالفها ·

قال أبو دلامه : صدقت والله ·

ثم رفع اليها رقعة يقول فيها :

أبلغا ريطة أنى كنت عبدا لأبيها
فمضى يرحمه الله وأوصى بى اليها
وأراها نسيتنى مثل نسيان أخيها
جاء شهر الصوم يمشى مشية ما أشتهيها
قائدا لى ليلة القدر كأنى أبتغيها
تنطح القبلة شهرا جبهتى لا تاتليها
ولقد عشت زمانا فى فيافى وجيها
فى ليال من شتاء كنت شيخا أشتهيها
قاعدا أوقد نارا لضباب أشتويها
وصبوح وغبوق فى علاب أحتسيها
ما أبالى ليلة القد ر ولا تسمعنيها
فاطلبى لى فرجا منـ ها وأجرى لك فيها

فلما قرأت الرقعة ضحكت ، وأرسلت اليه بجواب تقول فيه :

اصطبر حتى تمضى ليلة القدر .

فكتب اليها : انى لم أسألك أن تكلميه فى اعفائى عاما قابلا ، واذا مضيت ليلة القدر فقد فنى الشهر.

وكتب تحت ذلك هذه الأبيات :

خافى الهك فى نفس قد احتضرت
قامت قيامتها بين المصلينا
ما ليلة القدر من همى فاطلبها
انى أخاف المنايا قبل عشرينا
يا ليلة القدر قد كسرت أرجلنا
يا ليلة القدر حقا ما تمنينا
لا بارك الله فى خير أؤمله
فى ليلة بعد ما قمنا ثلاثينا

فلما قرأت الأبيات ضحكت ودخلت الى المهدى فشفعت له اليه ، وأنشدته الشعرين ، فضحك المهدى حتى استلقى ودعا بأبى دلامة ، وكانت ريطة معه ، وقال له :

قد شفعنا ريطة فيك ، وأمرنا لك بسبعة آلاف درهم .

فقال أبو دلامة : أما شفاعة سيدتى فى حتى أعفيتنى فأعفاها الله من النار ، وأما السبعة الآلاف فما أعجبنى ما فعلته . اما أن تتمها بثلاثة الآلاف فتصير عشرة آلاف ، واما أن تنقصنى منها ألفين فتصير خمسة آلاف ،فانى لا أعلم حساب السبعة .

فقال المهدى : قد جعلتها خمسة آلاف .

قال أبو دلامة : أعيذك بالله أن تختار أدنى الحالين وانت أنت . فعبث به المهدى ، ثم كلمته ريطة فيه ، فأتمها له عشرة آلاف درهم ، فأحيل على الخازن وأخذها .

(ب)

وكانت ريطة قد وعدت أبا دلامة أن تعطيه جارية . فمدحها بعدة قصائد ـ وهى لا تفى بالوعد .

وخرجت ريطة من بغداد الى مكة حاجة ، فحجت ورجعت ، وكانت لها جارية يقال لها « أم عبيده » وكانت برزه ، تخرج ، وتكلم الرجال ، وتبلغ رسائل سيدتها ريطة .

فقال أبو دلامة لأم عبيدة حين عيل صبره :

أبلغى سيدتى ان شئت يا أم عبيده
انها أرشدها الله وان كانت رشيده
وعدتنى قبل أن تخ رج للحج وليده
فتنظرت وأرسلـ ت بعشرين قصيده
كلما تخلق أولى بدلت أخرى جديده
اننى شيخ كبير ليس فى بيتى قعيده
غير مثل الغول عندى ذات أوصال مديده
وجهها أسمج من حو ت طرى فى عصيده
ذات رجل ويد كلتا هما مثل القديده

فدخلت أم عبيده على السيدة ريطه فانشدتها الشعر . فأمرت له بجاريه ومائتى دينار للنفقة عليها .